

## في العصر العباسي الأول

لعل أول ما يلاحظ من شيوع الشعر في العصر العباسي الأول على كل لسان أننا نجده يعمُّ لا بين مَنْ أصولهم عربية فحسب ، بل أيضا بين مَنْ أصولهم أجنبية ، بل إن المنحدرين من أصول أجنبية أخذوا يؤلفون جمهوراً كبيراً من ناظميه ، وحاز كثير منهم قصب السبق فيه ، على نحو ما نعرف من أعلامه النابهين أمثال بشار وأبي نواس ومسلم بن الوليد وأبان بن عبد الحميد ، وجميعهم من الفرس ، ومثل أبي العتاهيه وكان من النبط ، ومثل أبي عطاء السندي وكان هنديا من السند . وكلنا نعرف أن بشاراً كان شعوبياً ، فحتى الشعوبيون الذين كانوا يزعمون تفوق الأجانب على العرب اتخذوا الشعر العربي لسانا لهم يعبرون به عن أهوائهم ومشاعرهم ، ولم يستطيعوا أن يوهنوا من شعبيته .

وتضافرت عوامل مختلفة على التمكين للطوايع الشعبية فيه . فقد أكبَّ علماء اللغة على شرح الشعر القديم ، واستطاعوا أن يدللوه للشباب ، ولا نبعد إذا قلنا إن شباب الكوفة والبصرة وبغداد - بفضل اللغويين - كان علمهم بالشعر القديم أدق وأوسع من علم معاصريه القدماء الذين كانوا يعرفون أطرافاً منه والذين لم يكونوا يقفون على كل أطرافه وقوف الشباب البغدادي والبصري والكوفي في العصر ، إذ بسطه لهم اللغويون شرحاً وتفسيراً ، كما بسطوه لهم تاريخياً ولغويًا ونقدياً بسطاً مكثفهم من تمثله تمثلاً رائعاً ، فإذا هم يجيدونه إجادة العرب الخُلص ، بل إذا هم يتفوقون فيه ويصبحون حملة لوائه . وكان مما ساعد على ذلك بقوة أنه لم يكن هناك أي حجاب بين الشباب وبين التزود على أيدي اللغويين بالشعر القديم ، إذ كانوا يلقون دروسهم بالمساجد ، وكانت حلقاتهم مباحة للجميع ، فكان الشباب يتحلَّق حولهم ويأخذ عنهم كل معارفهم ، وغير بعيد منها كانت تنعقد حلقات المتكلمين والفقهاء والنحاة والعلماء من كل صنف وعلى كل لون .

وهيأ ذلك لأن تصبح جميع موارد الثقافة شعبية شعرية وغير شعرية ، ويوضح

ذلك أننا إذا رجعنا إلى ضرب من ضروب الثقافة العميقة ، وليكن ثقافة المتكلمين ، وخاصة المعتزلة ، وجدنا كثيرين منهم ممن تدور أسماؤهم في الكتب من ذوى الحرف أو بعبارة أخرى من الطبقات الشعبية الدنيا ، مثل واصل الغزّال وأبي الهذيل العلاف وأبي حفص الحداد وأبي أحمد التّمّار وأبي شعيب القلال وفضل الحذاء وأبي جعفر الإسكافي وحسين النّجار وهشام القُوطي . وكل منهم موصوف بما يدل على مهنته ، مما يدل على إقبال عامة الشعب على التثقف بعلم الكلام ، وخاصة بالاعتزال ومثاله العويصة . ويتوقف الجاحظ في كتاباته أحيانا ليقول : وسألت بعض البحرين من أصحاب الكلام ، أو ليقول : وسألت بعض العطّارين من أصحابنا المعتزلة . وكأن العطارين في عصره كانوا أقساماً ، منهم من يعتقد مذهب الاعتزال ، ومنهم من يعتقد غيره من مذاهب المتكلمين . ولا بد أن كان على شاكلة العطارين والبحريين بقية التجار وأصحاب الحرف ، فهم جميعا يفتنون إلى حلقات المتكلمين ينهلون منها ويعبّون في المساجد الجامعة كما يشاءون . وكان من أكبر هذه الحلقات بمسجد بغداد الكبير حلقة إبراهيم النظام أستاذ الجاحظ ، وكان يتبعه خلق كثير من أهل بغداد . ويقول الجاحظ : « لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل » . وهو يربط بوضوح بين المتكلمين وثقافتهم لعصره وبين العامة . ويؤكد ذلك أننا نراه في بعض رسائله ينكر على العامة مناقشتها للملحدين في آرائهم الإلحادية الفاسدة لعدم إحاطتها بالأدلة التي تنقض تلك الآراء نقضا ، يقول : « ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحد من أحد » . وفي ذلك ما يدل على أن كل عامي لعصر الجاحظ كان ينال حظاً من الكلام وأنه كان أحد علوم العامة .

وإنما أطلنا في بيان ذلك لندل على أن الثقافة حينئذ كانت حظاً شائعاً بين جميع أفراد الشعب على اختلاف طبقاته ، وطبيعي أن تدخل في ذلك ثقافة الشعر ، بل لا شك أن حظ الأفراد منها كان أوسع ، لأنها أكثر اتصالاً بعواطف الناس وأهوائهم ، وكانت رواية الشعر حينئذ تشيع في جميع الأوساط ، إذ كان الناس يتناشون دائماً ، وتشهد لذلك بيئة المتكلمين ، فقد كان كثير منهم لا يزالون

ينشدونه في مجالسهم ومحاوراتهم ، وفي مقدمتهم بشر بن المعتز وأبو الهذيل العلاف والنظّام ، ومن يرجع إلى كتب الجاحظ المتكلم المعتزلي يجدها زاخرة بالأشعار ، حتى إن كتابا له مثل كتاب الحيوان الذي يقع في سبعة مجلدات لا تكاد تخلو أكثر أوراقه من بعض الأشعار ، وكثيرا ما تتوالى فيه الأبيات صفحات متعاقبة . ومرجع ذلك إلى أن الشعر كان يدور على كل لسان .

وهذا الاتصال الوثيق بين الشعر والشعب هو الذي جعل أكثر شعراء الشعب من أبناء الطبقة العامة العاملة ، ويكفي أن نعرف أن أعلامهم النابيهين وهم بشر بن برد وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأبو تمام نبتوا جميعا في الطبقة الدنيا من طبقات الشعب ، فبشار كان أبوه طيئانا يضرب اللبّين أو حجارة الطين ويعيش منها معيشة بائسة وكان أخواه : بشر وبشير قصّصايبين يبيعان اللحم . وكانت أم أبي نواس التي كفلته بعد موت أبيه وقامت على تربيته غازلة للصوف تعيش من كسب يديها ، أما أبو العتاهية فكان أبوه يشتغل بالحجامة ، وكان مضيّقا عليه في الرزق ، مما جعل ابنه - بمساعدة أخيه زيد - يجتري بيع الحرار والفخّار ، فكان يحملهما على ظهره وينادى عليهما في شوارع الكوفة ، وتفجر ينبوع الشعر على لسانه ، فكان يأتيه الغلمان والمتأدبون فينشدهم أشعاره ، ويكتبونها على ما يشترونه من فخاره وجيراره . وكان الوليد أبو مسلم حائكا يعيش في ضيق وإقلال ، أما أبو تمام فكان أبوه صاحب حانوت عطارة .

وإذا مضينا نبحث في العلاقة بين الحياة الشعبية للناس وموضوعات الشعر في العصر العباسي الأول نخيل إلينا أن المديح كان بعيدا عن الشعب لا تصاله غالباً بالطبقة العليا من الخلفاء والوزراء ، ولكن لنحذر التعميم لأسباب كثيرة ، فإن من كانوا يمدحون الوزراء والخلفاء كانوا يرسمون لهم في مدائحهم مثالية الحاكم كما يريدونها الشعب ، وبذلك كانوا يصلحون عن روحه في مدائحهم ، فمثلا هرون الرشيد حين يمدحه أبو نواس أو أبو العتاهية لا يمدح شخصه من حيث هو ، وإنما يمدح فيه المثل الأعلى للخليفة الكامل كما يترأى في نخيلة الجماعة الإسلامية . والمدحة من هذه الناحية تتشع بطوايع شعبية واضحة إذ تصور مثل الشعب العليا في الحكم وما ينبغي أن يسوده من العدل الذي لا تصلح حياة الناس ولا تطيب بلونه ، كما تصور مثله العليا في الخلق الكريم ، وهي مثل ظل الشعراء يرددونها

في مديح الخلفاء وغيرهم كى يرويهما الكبير وينشأ عليها الصغير ، وكان أبو تمام يحس ذلك إحساساً واضحاً ، فقال :

ولولا خلالُ سنّها الشعرُ ما درى      بَعَاةُ العُلا من أين تُوتى المكارمُ

والمدحة بذلك لم تكن رياء ولا نفاقاً ولا لغواً من اللغو ، بل كانت تجسيماً لأداة الحكم الصالح وما ينبغى أن ينحى عنه من صور الفساد ، كما كانت تجسيماً للفضائل التي يريدها الشعب في حكامه وقادته ، ولذلك دخلت في تربية الناشئة ، وعدت نبراساً مضيئاً للشائيل الكريمة ، كما لاحظ أبو تمام . وكانت من حين إلى حين تحمل بعض مطالب الشعب ، ومن خير ما يصور ذلك شكوى مريرة من غلاء الأسعار قدّمها أبو العتاهية للرشيد في إحدى مدائحه له ، إذ يقول :

إني أرى الأسعارَ أَسَّه      مارَ الرعيّةِ غاليّةِ  
وأرى المكاسبَ نَزْرَةً      وأرى الضرورةَ فاشيةِ  
وأرى اليتامى والأرا      ملّ في البيوت الخاليةِ  
يشكون مَجْهَدَةً بأص      واتِ ضعافٍ عاليه  
مَنْ يَرْتَجَى للناس غي      رُك للعيسون الباكيه  
من مُضْطَبّاتِ جُوع      تسمى وتُضْصِح طاويه  
مَنْ للبطون الجائعا      ت وللجسوم العاربه  
يا بن الخلائف لا فُقد      تَ ولا عدمت العافيه  
أَلقيتُ أَخْبَاراً إلي      ك من الرعيّة شافيه

وواضح ما يصور أبو العتاهية في مدحته من بؤس الطبقة الدنيا في الشعب إزاء غلاء الأسعار الذي لا يطاق مع نقص المكاسب وقلتها ، وبصور اليتامى والأرامل وحياتهم البائسة وما فيه الأطفال وغير الأطفال من الجوع والعري والعناء القاسى ، ويتوسل إلى الخليفة أن يتخذ الأسباب لهبوط الأسعار ، حتى يجد الجائعُ الغذاء والعارى الكساء والظمآن الماء .

ولم يكن الشعب يفرح بشيء فرحه بانتصارات الدولة وقوادها من الخلفاء وغير الخلفاء على أعدائها من الترك في أواسط آسيا والروم في آسيا الصغرى وكان ما يزال ينتظر البشارات بالنصر . وحلَّت المدائح حينئذ محل وسائل الإعلام الحديثة ، فهي التي كانت تسجل انتصارات العرب على الأعداء مشيدة بالقواد العظام وبلاتهم حتى النصر العظيم ، حاملة أنباء ذلك إلى الشعب الذي كان لا يزال ينتظرها في شوق وطفة . ومن أهم المعارك التي نشبت في عهد الرشيد معاركه مع نَقْفُور إمبراطور بيزنطة ، وكانت قد أرغمته الجيوش العربية في عهد أبيه المهدي أن يؤدي الجزية كل عام ، فلما ولي الرشيد نقض العهد وكتب إليه كتاباً مطالباً برد الجزية التي أداها في السنين الماضية ، وغضب الرشيد غضباً شديداً ، وكتب إليه على ظهر كتابه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من هرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك يا بن الكافرة والجواب ما تراه دون أن تسمعه . والسلام » . وشخص إليه في جيش جرار ، اخترق به آسيا الصغرى وغنم مغنم كثيرة . وجزع نقفور وأرسل إليه يعلن الخضوع وأداء الجزية المضروبة . وعاد الرشيد إلى مدينة الرقّة بالموصل ، وسقط ثلج كثيف ، فأمن نقفور من الغزو ، ونقض الصلح بينه وبين الرشيد ، والرشيد لا يعلم ، غير أن صنيع نقفور تسرب إلى الشعب ، فدخل عليه التَّيْمِيّ الشاعر ، وهو ينشد :

نقضَ الذي أعطاكه نَقْفُورُ      فعليه دائرةُ البوارِ تدورُ  
نَقْفُورُ! إنك حين تغلر أن نأى      عنك الإمامُ لجاهلٍ مغرورُ  
أظننت حين غدرت أنك مفلتُ      هيلتكَ أمك ما ظننت غرورُ

وارتفعت أصوات المغنين بالأبيات في بغداد وغير بغداد ، وتناشدها الناس وإلحيش ، وزحف الرشيد بجموعه الكثيفة حتى أناخ على مدينة « هرقله » بآسيا الصغرى ، وفتحها عنوة ، بعد أن سلط عليها مجانيقه وأحاطها خرائب وأطلالا . وذلَّ نقفور وألقى الرومُ عن يديهم صاغرون ، وعاد نقفور إلى أداء الجزية راغماً . وهلَّل الشعب لهذا النصر المبين وهلل معه الشعراء ، وتغنى المغنون ببعض ما نظموه من مثل قول أشجع السُّلَمِيّ :

أَمَسْتُ هِرْقَلَةَ تَهْوَى مِنْ جَوَانِبِهَا      وَنَاصِرُ اللَّهِ وَالْإِسْلَامِ يَرْمِيهَا  
مَلَكَتْهَا وَقَتَلَتِ النَّاكِثِينَ بِهَا      بِنَصْرٍ مِنْ يَمْلِكُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا

وطارت الأنباء بذلك إلى العالم العربي ، طارت بها هاتان القصيدتان وما مثلهما من مدائح رنّانة . وكل من يتعقب أخبار المعارك الحربية في العصر ووصفها عند الشعراء في مدائحهم للقواد من الخلفاء وغير الخلفاء يحس أنهم كانوا يشبهون المراسلين الحربيين في عصرنا ، فهم يلازمون الحيوش وقوادها ، حتى إذا نشبت معركة سحق فيها العرب أعداءهم ، وصفوا ذلك في مدائحهم للقادة ، وطارت مدائحهم إلى بغداد وغير بغداد . ولعل شاعراً في العصر لم يبلغ من ذلك ما بلغه أبو تمام في تصويره لانتصارات المأمون والمعتمد وقوادهما العظام ، إذ كان يرافق الحملات الحربية ويرى الوقائع تحت بصره ، وما يذيق جنود العرب البواسل الأعداء من دمار . وكان أول ما سجله من ذلك معارك المأمون مع تيوفيل إمبراطور الروم وما أخذ ينزله به وبجموعه من هزائم ماحقه . حتى إذا ولي المعتمد بعده الخلافة لزم قواده في حروبهم مع بابك بأذربيجان ، وشاهد – وصوّر – ما أنزلوه به من ضربات قاصمة ، حتى وقع أسيراً ، وقُتِلَ وصلب ببغداد نكالا له وعقاباً . وكان تيوفيل إمبراطور الروم قد انتهز انشغال جيوش الدولة في القضاء على بابك ، وأغار على مدينة « زبيطرة » من ثغور الجزيرة على الحدود بين الروم والعرب ، ورماها بالمجانيق وخرّبها . وسفك دماء كثير من أهلها . وسبى كثيرات من نساها ، فضجّ العرب في الأمصار ، واستصرخوا الدولة في المساجد ، وبلغ نبال الكارثة الخطيرة المعتمد ، كما بلغه أن امرأة من الأسيرات كانت تصيح وهم يجرّونها في الأغلال : وامعتصاه وإسلاماه ! فصاح وهو بقصره : لبيك . وأمر توتاً بالنفير إلى الحرب ، وأخذ في إعداد جيشه بالسلاح والمثونة ، وركب فرسه في مقدمته ، وتبعه المرسلون الحربيون من الشعراء وفي مقدمتهم أبو تمام . وكان قد سأل من حوله أي بلاد الروم أكبر وأمنع ؟ فقالوا له عمورية – وكانت تقع إلى الجنوب الغربي من أنقرة – فأمر بتقش اسمها على التروس والألوية . وتنبأ بعض المنجمين بإخفاق الحملة ، فرمى بتنبؤهم عرض الحائط ، ومضى بجيشه مسرعاً ، وألقى بجموعه على أنقرة فأصبحت أطلالا عافية . وتحول إلى عمورية ، فحاصرها خمسة عشر يوماً الشر وطوابه

يرميها بالمجانيق حتى احترقت وهوت أسوارها ، ومزق الجيش الفاتح جنودها ، وبلغ عدد قتلها تسعين ألفاً ، غير عشرات الألوف من أسراها الذين وُضعت في أيديهم وأرجلهم القيود والأغلال ، وغير الألوف من السبايا . وجلجل أبو تمام بصوته القوى جلجلة دوت في أسماع العالم العربي ، منشداً قصيدته ، بل ملحمته الرائعة :

السيف أصدقُ أنباءً من الكُتُبِ      في حَدِّهِ الحَدُّ بين الجِدِّ واللَّعبِ

وهو يشير في مطلعها إلى نبوءة المنجمين وكذبها قائلاً إن القوة فوق الكتب أو فوق العقل ، فهي سناد الشعوب وعمادها ، ويمضي فيصور الانتصار العظيم في عمورية ، مجسداً ما شبَّ فيها من حريق تعالت نيرانه وترامت في الآفاق حتى كأن الدجى رغب عن لون رداثه الأسود ، بل لا تزال الشمس طالعة ساطعة ، فلم يعد هناك ليل ، بل اتصل النهار بضحاها . ويصور فرحة الجيش بالنصر ، ويقول إن عمورية وما لطخها من رماد الحريق الأسود ولطَّخ وجهها من بُقعه أجمل في عيون الجنود الظافرين من مَيَّةَ وربَّعها وربَّاه المزهرة في عين عاشقها الوهان ذى الرمة . ويجسِّد صلابة الجيش العربي ومضاء وقوته التي لا تُقهرُ تصويراً منقطع النظير ، ويقرن النصر في معركة عمورية إلى النصر في معركة بدر المشهورة التي كانت عزاً للإسلام ومجداً ما بعده مجد ، قائلاً للمعتصم :

فبين أيامك الَّتِي نُصِرْتَ بها      وبين أيام بَدْرِ أَقْرَبِ النَّسَبِ

وذاعت القصيدة في كل مكان . وضمها كل عربي إلى صدره ، ولا يزال الشباب العربي إلى اليوم يضمها إلى صدره كأنها تيممة أو تعويذة سحرية .

وظلت المدحة في العصر تُسْتَغْلَى في الخصومات السياسية بين الشيعة خاصة والدولة أو الجماعة ، فقد أكثر العلويون من الثورات على العباسيين ، ووقف معهم غير شاعر ، وأحسَّ الخلفاء العباسيون بواجبهم إلى من يدعون لهم عند الرعية وانحاز لهم ضد العلويين كثير من الشعراء ، وقاموا لهم بدعاية سياسية واسعة ، مصورين فيهم العدالة والتقوى والذود عن حمى الوطن ، ومضوا يكررون لهم أنهم أولياء الخلافة الأقربون وورثتها الشرعيون ، ورثوها عن الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق عمه العباس بن عبد المطلب ، والعم مقدم حسب حكم الشريعة على

الأسباط في الوراثة ، والأسباط أبناء البنت ، مشيرين إلى أن العلويين يدعون وراثتها عن طريق أمهم السيدة فاطمة الزهراء . وهم إنما كانوا يقولون كما مر بنا بأن الرسول أوصى بالخلافة إلى جدهم علي بن أبي طالب ابن عمه ، إذ قال إنه منه بمنزلة هرون من موسى . وإنما نذكر ذلك لنشير إلى أن الشعر دائماً كان يشارك في حياة الشعب السياسية العامة .

ولم يكن الهجاء أقل تمثيلاً لحياة الشعب من المديح ، إذ هو في حقيقته تصوير لمطالب المجتمع وما بأفواده من خصال ذميمة وما بحكامه وحكمهم من انحراف عن الجادة ، ويلقانا هجاء كثير للحكام يريد الشعراء أن يعدلوا بهم إلى النهج القويم في السلوك وفي السياسة والحكم ، وكان المهدي أول خليفة عباسي فتح قصره للمغنين ، واستاء كثير من أفراد الشعب لذلك ، فانبرى بشار يقول :

ضاعتُ خلافتُكم يا قومُ فالتمسوا خليفةَ الله بين الزُّقِّ والعودِ

وكان بشار نفسه معوجَّ الخلق يعيش للخمر والإثم ، وكأنه في البيت لا يصور غضبه وإنما يصور غضب الشعب . حين فتح المهدي قصره للمغنين ، وبالغ وتجاوز الحد حين ادعى على المهدي أنه يشرب الخمر ويعاقرها . ولعل العصر لم يعرف شاعراً عاش يهجو الخلفاء ، كما عرف في دجبل الشاعر الشيعي المعروف ، وله فيهم أهاج مرة ، تعبر أقوى تعبير عن سخط الشيعة . ويجانب هذا الهجاء السياسي كان هناك هجاء فردي كثير ، اتخذ صورة شعبية من مقطعات قصيرة كان يترشها الشعراء وكأنها سهام مصمية ، وكانت سريعة الانتشار على ألسنة الناس ، يتداولونها في شوارع بغداد والبصرة والكوفة . وكثيراً ما احتدم الهجاء حينئذ بين الشعراء على نحو ما احتدم بين بشار وحماد عجرد ، فكان الصبية والناس لا يزالون ينتظرون ما يحدثان ، ليترنمو به طويلاً وليرددوه على ألسنتهم من مثل قول حماد في بشار ، وكان ضريرا :

وأعسى يشبه القردَ إذا ما عمى القردُ  
 ذنبي لم يرخ يوماً إلى مجيدٍ ولم يغدُ  
 ولم يُخش له دمٌ ولم يُرج له حنْدُ

ويقال إن بشاراً حين سمع الأبيات بكى من شدة إيلامها لنفسه ، ولأنها شاعت على كل لسان ، وواضح ما بها من وصفه بالدناءة والهوان والصغار . ويُروى أن الأمور فسدت بين أبي العتاهية وسلّم الحاسر الذي اشتهر بكثرة ما صبّ الخلفاء والوزراء في حجره من أموال لمداخحه فيهم ، وأتاه أبو العتاهية من هذا الجانب ، فقال فيه ساخراً مشيراً إلى وقوفه الدائم على أبواب الخلفاء والحكام :

تعالى الله يا سلّم بن عمرو أذلّ الجِرْصُ أعناقَ الرجالِ

وسار البيت في الشعب مسير الأمثال ، حتى أن منه سلم وبكى بدموع غزار . وأتى أبو العتاهية باب أحمد بن يوسف رئيس ديوان الرسائل لعهد المأمون ، فحُجِبَ عنه ولم يلقه ، فتولى أبو العتاهية غاضباً غضباً شديداً ، ولم يلبث أن قال فيه :

متى يظفرُ الغادى عليك بحاجةٍ ونصْفُكُ محجوبٌ ونصْفُكُ نائمٌ

فسار البيت في الآفاق - كما يقول الرواة - وجعل الناس يتناشدونه ويتداولونه ، مما جعل أحمد بن يوسف يستقدمه ويعتذر إليه ملحاً في الاعتذار ، حتى صفح عنه . ويدل بوضوح على شيوع الهجاء في الشعب حينئذ وسرعة انتشاره ما يُروى من أن أبان بن عبد الحميد الشاعر المشهور كان يجاور شخصاً من ثقيف يسمى محمد بن خالد ، كان شديد العداوة له والإيذاء ، فتصادف أن تزوج فتاة من ثقيف تسمى عمارة بنت عبد الوهاب ، كانت على جانب من الجمال والثراء ، فانتهز أبان الفرصة للفرقة بينها وبينه ، وأخذ ينظم مقطوعة يصف فيها عرسها ، ويسخر متعجباً من رضا هذه الزوجة سيئة الطالع بهذا الزوج القبيح البخيل ، مصوراً بذلك ما ينتظرها من بؤس وتعاسة ، يقول :

لما رأيت البزَّ والشَّارَةَ	والقرَّش قد ضاقت به الحارَةَ
واللوزَّ والسكرَ يُرمَى بهِ	من فوق ذى الدار وذى الدارَةَ
وأحضرُوا المُلْهين لم يتركوا	طَبْلاً ولا صاحبَ زَمَارَةَ
قلت لماذا ؟ قيل : أعجوبةٌ	محمدٌ زَوْجَ عَمَارَةَ
لا عمرُ اللهُ بها بيتهُ	ولا رآته مُدْرِكًا ثارَةَ

ماذا رأت فيه ؟ وماذا رجّت ؟      وهى من النسوان مختاره  
أسود كالسفود يُنسى لدى ال      تنور بل ميخراك قياره  
يُجرى على أولاده خمسة      أرغفة كالريش طياره  
وأهله فى الأرض من خوفه      - إن أفرطوا فى الأكل - سياره

والسفود : حديدة يُسوى بها . والتنور : الكانون . والقيارة : صاحبة القار وهو القطران . وشاعت المقطوعة ودارت على ألسنة الصغار والكبار وسمعتها الزوجة ، فندبت حظها العاثر وولولت وفرّت على وجهها من بيت الزوجية إلى غير مآب . وعلى نحو ما كان الهجاء والمديح يتصلان بروح الشعب وتدور أشعارهما على الألسنة كذلك كان الرثاء وخاصة حين يُفجع الشعب فى بطل من أبطاله ، ويصور ذلك من بعض الوجوه مقتل قائد من قواده العظام ، هو محمد بن حميد الطوسى ، فى المعارك العنيفة التى خاضها مع بابك الخرمى لسنة ٢١٤ للهجرة . وقد نصب له الشعب ، حين علم بمصرعه ، المآتم فى كل مكان . وتهول الكارثة - كما هالت أفراد الشعب - أبا تمام ، وتملأ قلبه حزناً ممضاً ، فيغمس طرف ردايه فى مداد شديد السواد ، ويلطّخ به وجهه وجنداً ولوعة على البطل العربى ، ويرثيه بمرثيته الرائعة التى دارت على كل لسان ، وفيها يهتف بمثل قوله :

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة      تقوم مقام النضر إذ فاته النضر  
وما مات حتى مات مضرّب سيفه      من الضرب واعتلت عليه القنا السمر  
فأثبت فى مستنقع الموت رجله      وقال لها : من تحت أخمصك الحشر  
مضى طاهر الأثواب لم تبق روضة      غداة ثوى إلا اشتهدت أنها قبر

وهو ليس رثاء ، بل هو تمجيد لا يدانيه تمجيد فى رثاء الأبطال الذين يضحون بأرواحهم فداء لشعبهم ، وابن حميد بذلك لم تصبه هزيمة ، فقد أقدم فى الحرب إقداماً لا يماثله إقدام ، وفتك بالأعداء فتكاً لا يماثله فتك ، حتى تقصفت السيوف والرواح فى يديه ، وهو ثابت كالطود فى مستنقع من مستنقعات الموت الزوام . وهى بطولة لا تلحقها بطولة ، حتى لتتمنى كل روضة عبقة لو أنها ضمت فى

حشاها جثمانه الطاهر . وطارت القصيدة كل مطار ، حتى إذا قدم أبو تمام بغداد ولقى القائد المشهور أباد لُق نوه له طويلاً بمرثيته تلك قائلاً له : « لم يمت من رثيَ بعثل هذا الشعر » . وكان جزاء وفاقا لأبي تمام حين توفي بالموصل أن يبني له أبناء الشهيد وأهله قبةً بعد وفاته تخليداً لذكوره ، فقد حفر لشهيدهم في ذاكرة العرب تمثالا خالداً لبطولته ، وجعلهم لا ينسون اسمه مهما دارت الحقب والأيام . ومن المرثى التي كانت شديدة الدوران على الألسنة مرثى الشيعة لأئمتهم المقتولين وكانوا ما ينون يرثون الحسين وكل من قتلهم الأمويون والعباسيون ، إذ دائماً كانت تعلقو - وخاصة في أساطير الشيعة - الأصوات بالنحيب والنشيج وبيعض أبيات ينظمها هذا الشاعر الشيعي أو ذاك ، من مثل قول السيد الحميري في بكاء الحسين :

ابنك المطهر للمطهرِ والمطهرة النقية  
كبكاء معسولة أتت يوماً لواحدتها المنية

وأكثر شعراء الشيعة مرثى لآل البيت في العصر دِعْبِل ، ومرثيه تذيب القلوب حشرات ، وأروعها تائيته التي طبقت الآفاق والتي لا يزال الشيعة يروونها وينشدون كثيراً من أبياتها إلى اليوم ، وهو يفتحها بقوله الدائر على جميع الألسنة :

مدارس آياتٍ خلّت من تلاوةٍ ومنزلٍ وخيءٍ مقفّر العرصاتِ

والمدارس : الأماكن التي يُدرّسُ فيها القرآن الكريم . وهذه المدارس عَطَّلت - في رأى دِعْبِل - كما عَطَّل منزل الوحي النبوي . واستمر يتحدث عن دور العلويين في مكة والمدينة ، ذاكراً أنها خلّت منهم ومن نسكهم وعباداتهم ، ويلوّح بحقهم المعتصب في الخلافة قائلاً :

هم أهل ميراثِ النبيِّ إذا اعتزوا وهم خيرُ قاداتٍ وخيرُ حُمَاةٍ

ويذكر من استشهدوا منهم في سبيل المطالبة بحقهم ناصباً أمام الأعين قبورهم في الكوفة والمدينة وكربلاء ، باكياً لهم ، ذارفاً دموعاً غزيراً ، مصوراً ميراثهم للرسول ، وكيف حرّموا من إمامة المسلمين ، مؤملاً منهم في إمام يثور على العباسيين ويستولى منهم على مقاليد الحكم ، ويوجه في أثناء ذلك الحديث إلى لائمه في تشيعه :

ملاَمَك في أهل النَبِيِّ فَإِنَّهُمْ أَحِبَّائِي مَا عَاشُوا وَأَهْلُ ثِقَاتِي  
فِيَارِبُ زِدْنِي مِنْ يَقِينِي بَصِيرَةً وَزِدْ حَبِّهِمْ يَارِبُ فِي حَسَنَاتِي

والمُرثية نواح مؤثر على الحسين وقتلى العلويين ، وهي تفتح أبواب الأمل أمام الشيعة في انتظار مهديهم المنتظر الذي يملأ الأرض عدلاً ، بعد أن مُلئت ، في رأيهم ورأى دعبل ، جَوْرًا وظلمًا . ولدعبل وراء ذلك مرث للـحسين من أهمها قصيدته العينية التي يصور فيها مقتله وفصل رأسه عن جثمانه الطاهر ، يقول :

رَأْسُ ابْنِ بِنْتِ مُحَمَّدٍ وَوَصِيَّهُ بِالرُّجَالِ عَلَى قَنَاةٍ تُرْفَعُ  
والمسلمون بمنظري وبمسمع لاجازع من ذا ولا متخشع  
ما روضة إلا تمتت أنها لك مضجع ولخط قبرك موضع

ووصى الرسول على بن أبي طالب ، والشيعة تعتقد أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى له بالخلافة كما أسلفنا . ويكثر عند دعبل مثل هذا النواح والبكاء على الحسين وغيره من أئمة الشيعة المقتولين ، وهو فيها يصور الانطباعات الشعبية للحادث عند الشيعة . وتصادف أن توفي إمامه الشيعي على الرضا بطوس ودُفن فيها بجانب قبر الرشيد هناك ، فإذا به يقول :

قبران في طوس : خير الناس كلهم وقبر شرم هذا من العبر  
ما ينفع الرجس من قرب الزكي وما على الزكي بقرب الرجس من ضرر

ولم يكن الرشيد رجسا كما يقول ، بل كان طهراً خالصاً ، فقد كان يحج عاماً ويفزو عاماً وأنزل بإمبراطور بيزنطة وجيوشه الرومية هزائم ساحقة . والمهم أن البيتين شاعا في البيئة الشيعية التي كانت تعمل على نشر أشعار دعبل وأمثاله ، ممن يعنفون في مرآتهم - فضلا عن أهاجيمهم - بالعباسيين ، ليملاؤا قلوب الناس عليهم غيظاً وحنقاً ، حتى يشوروا بهم ثورة عنيفة .

ولعل أهم موضوع كان يشيع شعره على ألسنة أفراد الشعب عامة هو الغزل ، فقد كان الناس جميعاً يقبلون عليه في ابتهاج ، لأنه يغذى أرواحهم بغذائه الإنساني الخالد ، وكان منه الصريح الذي ازدادت صراحته عما ألفنا في شعر المكيين والمدنيين

في العصر الأموي ، وكان منه العفيف الذي لا يعرف العبث واللهو ، وإنما يعرف العذاب والألم . وكان الصريح أكثر شيوعاً من العفيف وعملت في ذلك عوامل مختلفة ، فقد كان أكثر الشعراء من الموالى ، وكانت المرأة موضوع الحب عادة من الجوارى اللاتي تمتلئ بهن دور النخاسين ، فلم يحس الشعراء أمامها بصعاب ولا عتاب ، ولم تكن تحيط نفسها بضرب من الوقار والكرامة ، بل كانت تنهالك على الرجال ، مما جعل الشعراء يفصحون في أحيان كثيرة عن حبهم المادى الجسدى وغرائزهم النوعية التي يشتركون فيها مع الحيوانات .

ويخيل إلى الإنسان كأن الناس في هذا العصر إنما كانوا يعيشون للغزل والحب ، يتقدمهم في ذلك الشعراء ، فهم جميعاً يحبون ولكل منهم محبوبته أو محبوباته اللاتي ينظم فيهن أشعاره الغزلية . وكان كل ما ينظمه شاعر واله بإحدى الجوارى يصبح حديث الناس جميعاً . ويفيض كتاب الأغاني بأخبار هؤلاء الشعراء ومعشوقاتهم ، وكثيراً ما يفتح فصولاً للحديث عن شاعر ومحبوبته وأشعاره فيها وأخبارهما التي كان يتداولها الناس ، من ذلك الفصل الخاص الذي فتحه لبيشار بن بُرْد وصاحبته عبدة ، وفيها يقول هذه الأبيات التي كانت تجرى على كل لسان :

لم يَطُلْ ليلي ولكن لم أنم      ونَفَى عني الكرى طيفاً ألمً  
وإذا قلتُ لها جودي لنا      خرجتُ بالصمت عن لا ونعم  
نفسى يا « عبدة » عني واعلمي      أننى يا « عبدة » من لحم ودم  
إنَّ في بُردى جِسماً ناحلاً      لو توَكَّأتِ عليه لا نُهدَمُ

ويفتح كتاب الأغاني فصلاً لأبي نواس مع محبوبته جنان جارية الثقفين ، وكان قد رآها ، فكلف بها كلفاً شديداً ، وعرفت حبه ، ولكنها رفضته ، فكان كلما نظم فيها مقطوعة ازدادت به ضيقاً وبرماً ، وهو يزداد بها غراماً وهياماً ، ورآها يوماً تندب في مآتم وتلطم خدَّيها ، فقال توّاً :

ياقمرأ أبرزه مآتم      يندب شَجْواً بين أترابِ  
يبكى فيُذرى الدرُّ من نرجيس      ويلطم الوردُ بِعُنابِ  
لا تَبكِ مَيْتاً حَلَّ في حُفرةٍ      وأبكِ قتيلاً لك بالبابِ

وعبثاً حنّت عليه أو التفتت إليه مع كثرة ما نظم فيها من مقطوعات تغنى  
فيها المغنون ورواها أبو الفرج في كتابه ، وكأنها كانت تزدرية لما يندفع فيه  
من عبث وطهو ، وله فيها البيت الغزلي المشهور الذي كان يدور على الأفواه لعصره :

يزيدك وجهها حسناً إذا ما زدته نظراً

فكلما تأمل وجهها المتأمل تولّد له جمال جديد أكثر فتنة وروعة . ويابؤس أبي  
نواس في حبه ، فقد جشمته جنان الأهوال دون أن ينال منها نظرة أو شيئاً من  
الاهتمام . ويتحدث كتاب الأغاني أحاديث طويلة عن حب أبي العتاهية  
لعنبة وكانت تزدرية ، كما كانت تزدرى جنان أبا نواس ، وهو لا يكف عن  
غزله بها ، وهي تعلّمه كيف يحتمل الآلام ، وكيف يتجرّع مرارة المهجر ، غير  
حاسبة له حساباً ، وفيها يقول :

كأنها من حسنها ذرةً أخرجها اليم إلى الساحل  
كان في فيها وفي طرفها سواحراً أقبلن من بابل  
لم يبق مني حبها ما خلا حشاشة في بدن ناهل  
يا من رأى قبلي قتيلاً بكى من شدة الوجد على القاتل

ويكثر في غزله بها من الشكوى منها وأنها تسترقه ولا ترد عليه قلبه ، وهو المحب  
الواله الذي يحترق كبده كمدأ . ولا يزال يحيطها بالاستعطاف والتضرع ، وهي  
لا تغنى به ولا تكترث ، وغزلياته بها تملأ نوادي بغداد ويغنى فيها المغنون ، فتزديدها  
إحجاماً عن لقاءه . واشتهرت حينئذ في بغداد قصة ربيعة الرقي وحبها لحرارية كانت  
تسمى « داح » وغزله فيها يطير عن الأفواه طيراناً لطفته وسهولته ، وهو يصور فيه  
حبه لها وهيامه بها وكيف كانت تأسر قلبه وتخلب له ، على نحو ما نرى في قوله :

أنا والله قتيلاً لك من غير جراح  
أنت للناس قتلٌ بالهوى لا بالسلاح  
وبشكلٍ وبدلٍ وبحسنٍ ومزاح  
ليتني كنت حمّاماً لك مقصوص الجناح

ودار هذا الغزل لربيعه وما يماثله على كل لسان ، واستقدمه المهدي من بلدته « الرقّة » بالموصل ، ويقال إن جواريه هن اللاتى دفعنه ليحضره إلى بغداد حتى يستمعن منه إلى غزلياته . وهو خير يحمل في طياته ما يصور - من بعض الوجوه - كيف كان الغزل الذى ينظم بعيداً عن بغداد لا فى البصرة والكوفة فحسب ، بل أيضاً فى الرقة وغيرها ، يُحْمَلُ إليها ويشيع على الألسنة . ولعل أهم حب بين اثنين شغل البغداديين فى العصر هو حب العباس بن الأحنف وفوز جارية محمد بن المنصور بن زياد الملقب بفتى العسكر لشجاعته وشدة بأسه فى القتال ، وهو حب نقى طاهر يذكرنا بحب العذريين فى العصر الأموى . وكانت فوز أدبية رقيقة الحاشية تروى كثيراً من أشعار العرب وأخبارهم ، وكان محمد بن المنصور يرعى الأدباء والشعراء ويستقبلهم بداره فى مجالسه ، وكان يتلطف لهم أحياناً فيحضر فوزاً جاريته الأدبية ودرته الفريدة ، لتتحدث إليهم وتستمع بعض أحاديثهم ، وراها العباس بن الأحنف فى إحدى زيارته لفتى العسكر واستمع إلى حديثها العذب فوقعت فى قلبه ، وأخذ ينظم فيها غزلاً كثيراً مكنياً عنها باسم « ظلوم » . وحدث أن زار فتى العسكر يوماً ، ودخلت المجلس فوز ، فخفق قلبه خفقاناً سريعاً . ولم تحيه حين جلست خفراً واستحياءً . ودار الحديث ، وسأل فتى العسكر العباس عن محبوبته ظلوم وشعره فيها ، طالباً أن ينشده بعض ما نظمه ، فأنشد :

قالت ظلومُ سَمِيَّةُ الظُّلْمِ      مالى رأيتك ناحلَ الجِسمِ .  
يا مَنْ رَمَى قَلْبِي فَأَقْصَدَهُ      أنتَ العَليمُ بمَوقِعِ السَّهْمِ

وأظهر فتى العسكر استحسانه ، وسأله ألا ترق لك ؟ وأجابه إنها ترغب عنى ولا تصلنى ، وحتى إذا رأتنى انصرفت عنى لا تُحَيِّينى ، وأنشد :

والله لو أن القلوبَ كقلبها      مارقٌ للولد الضعيف الوالدُ

فقال له فتى العسكر : تُرعى من هى هذه التى سلبتك قلبك وخبلت لبك ، وما مقدار حسننها الذى فتنك وكلفك من الجهد ما تطيق وما لا تطيق ، صفها لنا وأوجز ، فقال على البديهة :

لقد مُلئتُ ماءَ الشَّبَابِ كأنها      قضيب من الرِّيحانِ رِيانُ أَخْضَرُ

وتضرَّج وجه فَوْزٍ بالخجل ، ولم يفتن في العسكر ، وقال له : مسكين يا عباس  
ما أبأسك ؟ ولو عرفتها لكلمتها في أمرك ومن يدري ؟ ربما كانت تبادلك نفس  
الحب ، وتصدُّ عنك عتابا لا مللا كما تظن ، فأنشد :

لو كنتِ عاتبةً لسكنَ رَوْعِي      أُملي رضاكِ وزرتُ غيرَ مراقبِ  
لكن مَلِيتِ فلم تكن لي حيلةً      صدُّ الملولِ خلافتُ صدَّ العاتبِ

وكانت فوز شاعرة ، وتنبهت إلى غرض العباس ، وعرفت أنه يوجه إليها  
البيتين ، فقالت له ضاحكة : ظننَّ خيراً يا عباس ! فربما كانت لا تستطيع أن  
تلقاك لما عليها من الحرس والرقباء ، فقال على الفور :

تمنّى رجالٌ ما أحبُّوا وإنما      تمنيتُ أن أشكو إليها وتسمعا  
أرى كالأشواق غيري وغيرها      قد استعذبا طولَ الهوى وتمتعا

فقالت أبلغك الله أمينتك يا عباس ، وكانت بعد ذلك تكاتبه وتراسله . وطارت  
القصة في بغداد وتناقلتها المجالس والندوات ، وتغنى المغنون والمغنيات في أشعار  
العباس وصبايته بفوز ، إذ كان لا يزال يغدو إليهم ويروح بأشعار تصور هذا  
الحب الذي اندلعت نيرانه في قلبه ، والذي كتب فيه ديواناً ضخماً ، كله شوق  
وصباية وهيام وضننى وسقم وعذاب من مثل قوله :

يا سقيمَ الجسمِ من مِحْنِهِ      مفرداً يبكي على شَجْنِهِ  
كلما جَدَّ البكاءُ به      دَبَّتِ الأَسقامُ في بَدْنِهِ

وأفرد القصاص نقرأ من هؤلاء الشعراء العشاق بالكتابة عن أخبارهم ووقائع  
حبهم وأشعارهم في كتب مستقلة ، لتجد العامة في ذلك بعض ما تبغى من اللهو  
والتسلية . وخير مثل لذلك على بن أديم الكوفي ، وكان يجب جارية منذ نعومة  
أظفارها تسمى « منتهلة » وشبَّت ، فباعها مواليتها لبعض الهاشميين ، فجنَّ جنونه ،  
وبكاها بكاء متصلاً متلهفاً عليها ملتانعاً بمثل قوله :

صاحوا: الرحيلُ وحتنى صَحْبِي      قالوا: الرَّوَّاحُ فطِيرُو لُبِّي  
لا صَبْرَ لِي عِنْدَ الْفِرَاقِ عَلَي      فَقَدِ الْحَبِيبَ وَلَوْعَةَ الْحُبِّ

ويقول أبو الفرج في كتابه الأغاني: « له حديث طويل مع منهلة في كتاب مفرد مشهور صنعه أهل الكوفة لهما ، فيه ذكر قصصهما وقتاً وقتاً وما قال في منهلة من الأشعار ، وأمرهما منعالم عند العامة » .

وكان من أهم ما عمل على شيوع أشعار الغزل والحب على ألسنة الناس تغنى المغنين والمغنيات بها ، وقد ازدهر الغناء حينئذ ازدهاراً لم يعرفه أي عصر من عصورنا القديمة ، إذ تولعت به جميع طبقات الشعب ، يتقدمهم الخلفاء منذ المهدي ، كما مر بنا . ونرى هرون الرشيد يجعل المغنين في مراتب وطبقات على نحو ما جعلهم الملك الفارسي القديم أردشير بن بابك ، وقد أمر إبراهيم الموصلي وإسماعيل بن جامع وفليح بن أبي العوَّاء ، أكبر المغنين في عصره ، أن يختاروا له الأصوات أو الأغاني المائة التي أدار أبو الفرج الأصبهاني كتابه « الأغاني » عليها . وتحول الخليفة الأمين بقصره إلى ما يشبه مقصفاً كبيراً للغناء والموسيقى والرقص . وكان المأمون في أول خلافته منصرفاً عن السماع والغناء ثم أقبل عليه . وكان المعتصم كلفاً بالسماع ، ومثله ابنه الخليفة الواثق وكان يحسن الغناء والضرب على الآلات الموسيقية ، وله أغانٍ دونها أبو الفرج في كتابه . وكان أبناء الخلفاء من الأمراء مثل آبائهم يقبلون على الغناء وعقد الحفلات له ، واشتهر إبراهيم بن المهدي وأخته عُلَيَّةٌ بإتقانهما الغناء وبكثرة ما خلّفاً فيه من أغانٍ بديعة أحصى منها أبو الفرج طائفة كبيرة في أغانيه . وكان القواد والوزراء وكبار رجال الدولة وعلية القوم يقبلون على تعلم الغناء والموسيقى ، وترك نفر منهم أغانٍ مشهورة دونها أبو الفرج على نحو ما نرى في ترجمته لأبي دُؤْلَف قائد المأمون وعبد الله بن طاهر واليه على مصر ثم على خراسان .

ويتملى كتاب الأغاني بتراجم المغنين النابيين في العصر العباسي الأول وما غنَّوا من أصوات أو أغانٍ ، وهم يُعدون فيه بالعشرات وفي مقدمتهم إبراهيم الموصلي ويقال إنه خلّف تسعمائة صوت أو أغنية وقد سجل منها أبو الفرج مجموعة كبيرة

في ترجمته له بأغانيه ، وهي عنده ضربان : ضرب اشترك فيه مع بعض المغنين قبله ،  
وضرب ابتدأه ابتداء ، فن الضرب الأول :

وياهَجَرَ ليلي قد بلغت بى المَدَى      وزدت على ما ليس يبلغه الهَجْرُ  
هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى      وزُرْتُك حتى قيل ليس له صَبْرُ  
لقد تركتني أحسداً الوحش أن أرى      أليفين منها لا يروعهما الذُعْرُ  
فياحُبها زدني جوى كل ليلةٍ      ويا سلوة الأيام موعدك الحَشْرُ

والشعر لأبي صمخر الهذلي البدوي تغنى فيه أولاً معبد وابن سريج في العصر  
الأموي ، وهما كبيراً المغنين في المدينة ومكة ، ثم تغنى فيه في هذا العصر إبراهيم  
الموصلى والحشامى والخليفة الواثق وعريب . ومن هذا الضرب :

وإنك واطراحك وصل سعدي      لأخرى في مودتها نكوبُ  
كثاقبة ليحلي مستعارٍ      بأذنيها فشانهما الثقوبُ  
فردت حلي جارتها إليها      وقد بقيت بأذنيها ندوبُ

والندوب : آثار الجروح . والشعر لابن هرمة المدني ، وفيه تغنى أولاً  
الغرييض مغنى مكة المشهور في عصر بني أمية كما تغنى فيه معاصره الهذلي ، ثم  
تغنى فيه في هذا العصر إبراهيم الموصلى وابن جامع المغنى المشهور . ومن هذا الضرب :

ألا ياصبنا نجد متى هجت من نجدٍ      لقد زادني مسراك وجداً على وجدٍ  
وقد زعموا أن المحب إذا دنا      يمل وأن النأي يشفي من الوجدِ  
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا      على أن قرب الدار خير من البعدِ

والشعر ليزيد بن الطشربية النجدى ، وفيه تغنى دحمان في العصر الأموي  
ثم تغنى فيه المغنون العباسيون من أمثال إبراهيم الموصلى والحشامى ومحمد بن بسخنر .

وعلى هذا النحو كان الغناء في العصر العباسى الأول يتيح لكثير من الأغاني  
الأموية أن تظل باقية بواسطة الغناء الذى صحبها ، ثم بواسطة الغناء العباسى الحديث ،

وكانه عمل بدوره - كما مر بنا في غير هذا الموضع - على نشر شعر الغناء الأموي واستمراره حياً متداولاً على الألسنة . وبنفس الصورة عمل على نشر كثير من أشعار الغزل العباسي ، وهي الضرب الثاني الذي كان يتغنى فيه - كما أشرنا إلى ذلك - إبراهيم الموصلي ، ومنه :

نَزَفَ البِكَاءُ دُمُوعَ عَيْنِكَ فَاسْتَعِرَ عَيْنًا لغيرِكَ دَمْعُهَا مِثْرَارُ  
من ذَا يُعِيرُكَ عَيْنَهُ تَبْكِي بِهَا أَرَأَيْتُ عَيْنًا لِلْبِكَاءِ تُعَارُ

والشعر للعباس بن الأحنف تغنيّ فيه أولاً ابن جامع ، وعارضه إبراهيم الموصلي فصنع فيه لحنًا ، غير أنه لم يلحق ابن جامع ولا قاربه في لحنه . ومن هذا الضرب :

إِذَا سَرَّهَا أَمْرٌ وَفِيهِ مَسَاءُ قَضَيْتُ لَهَا فِيمَا تُرِيدُ عَلَى نَفْسِي  
وَمَا مَرَّ يَوْمٌ أَرْتَجِي فِيهِ رَاحَةً فَأَذْكَرَهُ إِلَّا بِكَيْتُ عَلَى أَمْسِي

والشعر لأبي حفص الشطرنجيّ الشاعر العباسي المعروف ، وفيه غنى إبراهيم الموصلي ، وبه كان يتغنى الجوّاري في بيت آل الفضل بن الربيع وزبرهون الرشيد . ومن هذا الضرب :

تَقُولُ لِأَتْرَابِ لَهَا وَهِيَ تَمْتَرِي دُمُوعًا عَلَى الخَدَّيْنِ مِنْ شِدَّةِ الوَجْدِ  
أَكَلُ فَتَاةٍ لَا مَحَالَةَ نَازِلُ بِهَا مِثْلُ مَا بِي أُمُّ بُلَيْتُ بِهِ وَخَدِي  
بَرَانِي لَهُ حُبٌّ تَعْلَقُ بِالْحَشَا فَلَمْ يُبْقِ مِنْ جِسْمِي سِوَى العِظْمِ وَالجِلْدِ  
وَجَدْتُ الهَوَى حُلُومًا لِذِيذًا بِدَيْئُهُ وَآخِرُهُ مَرٌّ لِصَاحِبِهِ مُرْدِي

تمتري : تستدر . والشعر لصبية أعرابية ، تغنت في قصر هرون الرشيد ، وسمعه منها إبراهيم الموصلي ، وتغنى فيه للرشيد هو وابنه إسحق . وما ابتدأه إبراهيم وغيره من معنى العصر العباسي الأول :

بَكَيْتُ نَعْمَ بِكَيْتُ وَكُلُّ الْإِفِّ إِذَا بَانَتُ قَرِينَتُهُ بِكَأَهَا  
وَمَا فَارَقْتُ لُبْنِي عَنْ تَقَالٍ وَلَكِنْ شِقْوَةٌ بَلَغَتْ مَدَاهَا

والتقالى : البغض . والشعر لقيس بن ذريح . وقد تغنى فيه إبراهيم وابن جامع ويحيى المكي . وأنشدناه لنشير إلى أن الغناء في العصر العباسى الأول لم يعمل فقط على إذاعة أغانٍ قديمة كما مر بنا ، ولا على إذاعة أشعار عباسية ملحنة فحسب ، بل عمل على إذاعة أشعار قديمة كثيرة لم يسبق للمغنين أن لحنوها في العصر الأموى ، بل لحنها العباسيون ابتداء . ومن يرجع إلى ترجمة ابن جامع في كتاب الأغاني ، وهو ثالث ثلاثة كانوا كبار المغنين في عصره كما أسلفنا فسيراه يتغنى للأعشى وعبيد ابن الأبرص من الجاهليين ولنصيب ومكين العذرى وابن أبي ربيعة ويزيد بن مفرغ والعرجى من الأمويين وللعباس بن الأحنف وأبي حفص الشطرنجى وعمرو الوراق من معاصريه العباسيين . وواضح أن كثرة من تغنى لم كانوا من القدماء ، وأشعارهم تتردد بين المديح والفخر والثناء والغزل ، وهو ما نريد أن نلفت إليه ، فإن الغناء في العصرين : الأموى والعباسى الأول لم يعمل على نشر أشعار الغزل والحب وحدها ، بل عمل أيضا على نشر أشعار جميع الأغراض التى نظم فيها القدماء والمحدثون المعاصرون ، وإن كان يلاحظ أن أشعار الحب والغزل هى التى كانت أكثر دورانا على ألسنة المغنين والمغنيات ، ومن طريف ما تغنى فيه ابن جامع لعمرور الوراق :

فلو كان لى قلبان عشتُ بواحدٍ      وخلقْتُ قلبا فى هواكِ يعذبُ  
ولكنما أحيا بقلبٍ مروّع      فلا العيشُ يصفو لى ولا الموت يقربُ  
تعلمتُ أسبابَ الرضا خوف هجرها      وعلمها حبي لها كيف تغضب

وظاهرة ثانية عند ابن جامع ، هى أنه يذكر إزاء بعض الأغاني التى تغنى بها أنه أخذها عن بعض الجوارى فى مكة أو فى اليمن . والأغاني يذكر أن كثيرات من الجوارى المغنيات فى بغداد كن يرجحن عنها مع النخاسين إلى خراسان أو إلى الشام أو إلى مصر ، وبذلك كن ينشرن شعر الغناء فى الأقاليم الإسلامية . وفى كتاب الأغاني نصوص مختلفة تدل على أن العامة لم تكن تحفظ الأغاني التى يغنى فيها كبار المغنين والمغنيات فى العصر وتتداولها فحسب ، بل كانت أيضا تغنيها بنفس اللحن الذى وضعه لها المغنى الكبير على نحو ما يروى عن إسحق الموصلى المغنى المشهور ، فإنه فوجئ ذات يوم بخباز - كما يحكى أبو الفرج - يغنى له أغنية

كان شحيحاً بها ، وهي تمضى على هذه الصورة :

يَدِيرُ الْقَائِمَ الْأَقْصَى      غَزَالٌ شَفْنِي أَخْوَى  
بَرَى حُبِّي لَهُ جِنْمِي      وما يَدْرِي بِمَا أَلْقَى  
وَأَخْفَى حُبَّهُ جَهْدِي      ولا وَاللَّهِ مَا يَخْفَى

ودير القائم الأقصى : موضع على شاطئ الفرات . وكان إسحق يضمن بالأغنية على المغنين أن يأخذوها عنه ، فلما وجد الحجاز قد أخذها بحذافير نغمها وألحانها لم يعد يضمن بها . ويروى أبو الفرج أيضاً عنه أنه قال : ما اغتمت بشيء قط مثل ما اغتمت بصوتٍ مليحٍ صنعته في هذه الأبيات :

كان لي قلبٌ أَعِيشُ بِهِ      فاكْتَوَى بالنارِ فاحْتَرَقَا  
أنا لم أَرْزُقْ محبَّتِها      إنما للعبيد ما رُزِقَا  
منْ يَكُنْ ما ذاقَ طعمَ رَدِّي      ذاقه - لا شكَّ - إن عَشِقَا

والردى : الهلاك . يقول إسحق : وتصادف أُنَى حين كنت أصنعه جعلت أردده في جناح لي سحرراً ، فرَّبِي شخص من العامة ، فسمعه فأخذه ، وأنا لا أدري . وبكثرت من غند إلى المعتم لأغنيه به ، فإذا أنا بحلواني يغني - في أثناء صنعه الحلوى - اللحن بعينه ، وتحيَّرت ، وقلت له : يا فتى ! ممن سمعت هذا الصوت ، فلم يجبني ، فقدرت أنه مرَّبِي وأنا أصنعه وأردده ، وهو لا يعرفني ، فسمعه ، وأخذه . وهو خبر له دلالة بعيدة على سرعة شيوع الأغاني وانتشارها في الناس ، فهذه أغنية أخذت في الانتشار قبل أن يغنيها صاحبها في المكان الذي أعدَّها له ، وكان قصر الخلافة ، فما بالناس إذن بما كان يُعَسِّنِي في النوادي ودور اللهو والمتنزهاة ؟ إنه سرعان ما كان يشيع وينتشر على السنة العامة .

وكثرت حينئذ الجوارى المغنيات ، وكانت البخارية إذا أتقنت الغناء بيعت . بثمان مرتفع جداً ، مما جعل بعض كبار المغنين يقبلون على تعليم الجوارى فن الغناء ، على نحو ما يروى عن إبراهيم الموصلي ، إذ رأى شخص يوماً بداره ثمانين جارية يتعلمن فن الغناء والطرب ، وكأما كانت داره مدرسة كبيرة لتخريج المغنيات . ويحيل إلى الإنسان أنه لم يخل بيت لأحد من السراة في بغداد

والبصرة والكوفة من جارية تشيع الطرب والغناء والمرح في أركانه ، وكان من لا يستطيع شراء جارية مغنية استأجر لإحداهن من مقيمين أو من صاحبة جوار لتغنيه في بعض الليالي ، واشتهرت بذلك في الكوفة جارية تسمى «بربر» ولطبع بن إياس غزل كبير في جواربها . ولم تكن هناك مغنية متقنة إلا وتحفظ مئات الأصوات أو الأغاني وتؤديها أداءً متقناً حسناً ، ويقول الجاحظ في رسالته الخاصة بالقيان إن الحاذقة منهن كانت تروى أربعة آلاف أغنية ، فصاعداً ، والأغنية تتفاوت من بيتين إلى أربعة أبيات ، وعدد ما يدخل في ذلك من الشعر ، إذا ضُرب بعضه ببعض — كما يقول — عشرة آلاف بيت. ويقال إن «بذلاً» المغنية غنت عشرات المئات من الأغاني كما يقال إنها ألقت في الأغاني أو الأصوات كما كانوا يسمونها كتاباً يشتمل على اثني عشر ألف صوت منسوبة إلى أصحابها . ولم تذع الجوارى في العصر الأشعار عن طريق الأغاني وحدها فقد كانت تُكْتَبُ على ثيابهن وعصائبهن وأكمامهن ومراوحهن ، يكتبها التجار والبزازون جلباً لرواجها من مثل :

مالي رميتُ فلم تُصَبِّكْ سِهاى      ورميتنى فأصبتنى يا راى

ومثل :

أفلتُ من حور الجنانِ      وخلقمتُ فتنةً من يرانى

ويقال إن البيتين كُتبا على عصابتين. وكانوا أيضاً يكثران من كتابة أشعار الغزل والحب على البسط والسجاجيد ، وحدث شخص أنه رأى على دُور بساط الأبيات التالية لربيعة الرقى الذى مر بنا ذكره :

وتزعم أنى قد تبدلت خلةً      سواها وهذا الباطل المتقولُ  
لحاً الله من باع الصديقَ بغيره      فقالت: نعم حاشاك إن كنت تفعلُ  
ستقطع إنسانا إذا ما قطعنى      يحبكُ فانظر بعده من تبدلُ

ومعنى ذلك أنه تعاونت وسائل كثيرة في العصر على دوران شعر الحب والغزل خاصة وذبوعه على الألسنة . وما يدل بوضوح على شيوع شعر الغزل والحب وبعد تأثيره في نفوس الشباب أن نجد وعاظ البصرة يفرعون من شعر بشار — وكان شعره

سيّاراً يتناشده الناس كما يقول معاصروه — حين وجدوه يصدر عن الغريزة النوعية في غزله غير متأتم ولا متحرج في مثل قوله :

لا يُؤيسنك من مخبأةٍ قولٌ تغلظه وإن جرحاً  
عُسرُ النساءِ إلى مياسرةٍ والصعبُ يمكن بعد ما جمحا

وإنما فزعوا لأنهم رأوا فيه خطراً أيّ خطر ، إذ كان شباب البصرة وجواربها من المغنيات والمغنين يردّون هذا الغزل المتهتك ويتناشدونه . وكان يضيف إلى ذلك زندقة وإلحاداً في الدين . فاشتد هتافهم به ، ولكنه لم يسرّع ولم يزدجر ، بل مضى يدعو إلى اجتناء خطيئات الحب النوعي وآثامه ، دون أن يُعير الدين الحنيف والخلق القويم والعرف والتقاليد الإسلامية أي التفات فالحياة في رأيه الفاسد متاع جسدي ولذات وآثام :

قالوا حرامٌ تلاقينا فقلتُ لهم ما في التلاقي ولا في قبلةٍ حرجُ  
من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتكُ اللّهجُ

وتمادى في مثل هذا الغزل الخليع الماجن ، واشتد خوف وعاظ البصرة وأهلها على مدينتهم من شيوعه على ألسنة الشباب والحواري ، فرفعوا أمره إلى المهدي قائلين إنه يُغوى النساء والشباب بغزله الفاضح ، فأمره أن يكفّ عن ذلك ، وهدّده وتوعده ، واضطّرّ بشار أن يكف على مضمض . وفي ذلك ما يصور بوضوح التواصل الوثيق بين شعر الغزل والحب حينئذ وبين الشعب رجاله ونسائه .

وجوانب كثيرة في هذا الغزل توضح الطابع الشعبية فيه ، من أحماها ليونة عباراته وسهولة ألفاظه ، حتى كأنما كان الشعراء يرون أن يكون بنفس اللغة اليومية ، حتى يتسع تأثيره في الناس وإعجابهم به . وربما كان من دوافعهم في ذلك أنهم كانوا يتغزلون غالباً في الحواري المغنيات ، وكن لا يعرفن البداوة ولا الألفاظ الغريبة ، فكان طبيعياً أن لا يغربوا عليهن في لفظ ولا صياغة وأن يختاروا هن لغة سهلة بسيطة تمس قلوبهن برفق وبدون أي حجاب ، من مثل قول أبي العتاهية :

بَسَطْتُ كَفِّي نَحْوَكُم سَائِلاً ماذا تردّون على السائل

إن لم تُتيلوه فقولوا له قَوْلًا جميلاً بدلَ النَّائلِ  
أو كنتمُ العامَ على عُسرَةٍ وَيَلِي فَمَنْوُهُ إلى قابلِ

ويقول ابن المعتز تعليقاً على هذه الأبيات : « لهذا الشعر من قابو النساء موقع الزلال البارد من الظمان لرقته ». وهي رقة شاعت في الغزل حينئذ ، وشاع معها كثير من العذوبة والنعومة فيه ، مما أعدَّ بقوة لجريلانه على جميع الألسنة . وتشيع فيه الأوزان المجروءة والقصيرة ، وكأنما اصططنها الشعراء لغايتين : أن يكسبوا له من سرعة الحفظ والانتشار وأن يتيحوا للمغنين والمغنيات فيه ما يشاءون من الجهر بالألفاظ والهمس بها حسب حاجاتهم الغنائية . ودفع ذلك الشعراء إلى أن يكثرُوا في أوزانهم من الزحافات والعلل ، وهي كثرة أدتهم إلى أن يكشفوا بعض أوزان جديدة لم يعرفها أسلافهم ويصوغوا عليها بعض غزلم ، على نحو ما نعرف عن ظهور وزن المقتضب حينئذ ، ولأبي نواس فيه مقطوعة طريفة يستهلها بقوله :

حامل الهوى تَعِبُ يستخفُّه الطَّربُ  
إن بكى يحقُّ له ليس ما به لِعِبُ

وواضح أنه وزن خفيف كأنه النسيم لطفاً ورقة . وكثيرون حول أبي نواس وأبي العتاهية كانوا يحسنون نظم هذا الغزل الرقيق ، الذي كان يقبل المغنون والمغنيات على التغنى به على آلاتهم الموسيقية ، كما كان يقبل الناس جميعاً على روايته في مجالسهم ونواديبهم لما يمثِّل من الرقة المتناهية ودقة الحس ورهافة الشعور .

ومن موضوعات الشعر التي كانت تدور في طبقة — لعلها كانت خاصة — من طبقات الشعب موضوع الخمر أو الحمريات . وقد يبدو أنه موضوع فردي ولكن من المحقق أن من كانوا ينظمون فيه ، وإن كانوا أفراداً ، فقد كانوا يعبرون عن طبقة غير قليلة من معاصريهم ، كان بعضها يعاقر الخمر والإثم لأنه يريد أن يهرب من الحياة في عصره وشرها ونكدها فلا يجد إلا الخمر يغرق فيها همومه ، وكان بعضها زنديقاً ملحداً فهو يعاقرها ثورة على الدين الخفيف ، وكان بعضها شعوبياً عنصرياً ، فهو يعاقرها ثورة على العرب ، وكان بعضها متحلل الأخلاق ، فهو يعاقرها استهتاراً وعبثاً في غير تحفظ ولا احتياط .

وتقرن الخمر بالغناء منذ أوائل العصر في أماكن كثيرة ، فقد كان كثير من الناس يختلفون إلى دور أصحاب القيان للشراب والسماع ، وبالمثل كانوا يختلفون إلى البساتين المملوءة بالحانات في ضواحي بغداد وعلى مشارف نهر دجلة في الشمال والجنوب ، ويروى أن أبان بن عبد الحميد عكف على الشراب في مطالع شبابه عكوفاً جعل أباه يطلب إليه أن يخرج إلى بعض البساتين يمضى فيها وقتاً ، بعيداً عن حتى الكرخ ببغداد وحاناته ، علّه يسلو الإكباب على الخمر ، وغاب عنه طويلاً ، وفوجئ بابنه يكتب إليه :

يا أبى لا تَرْتِ لى من غَيْبَتِي      أنا فى خيرٍ ولهوٍ ودَعَا  
ومعى فى كل يومٍ مُسْمِعٌ      حاذقٌ يُطْرِبُنِي أو مُسْمِعِهِ  
وندامى كمصاييح الدُّجى      كلهم يأخذ كُأْساً مُتْرَعَهُ

فالبساتين كانت تكتظ بالحانات ، وكان الشباب الماجن يجد فيها مأربه من الخمر والسماع من بعض المغنين والمغنيات . وكانت تنتثر في ضواحي بغداد والكوفة وغيرهما من مدن العراق وعلى ضفاف دجلة والفرات الأديرة ، وكان بها قاعات كبيرة للشراب ، ويكثر الشعراء من الحديث عن خمورها ، حتى لتؤلف في ذلك كتب مستقلة مثل كتاب الديارات للشابسى . وكانت هناك أيام أعياد مسيحية ومجوسية على مدار السنة يخرج فيها الناس للهو ، كما يخرجون للشراب والسماع . وكانت دور الشعراء والمغنين تنحول ليالى كثيرة إلى مقاصف يتجمعون فيها للسمر والمرح حتى الصباح ، على نحو ما هو معروف عن جماعة مطيع بن إياس ووالبة بن الحباب ، وكانوا يدمنون معاقرة الصهباء ، ويعكفون على شربها أياماً متوالية متحررين من كل خلق وكل عرف وكل دين ، وفي ذلك يقول مطيع :

اخْلَعْ عِذَارِكَ فى الهَوَى      واشْرَبْ معتقَةَ الدَّنَانِ  
ووصلِ القبيحَ مجاهراً      فالعِشُّ فى وَصْلِ القِيَانِ  
لا يلهينك غيرُ ما      تهوى فإنَّ العمرَ فان

وقد ترجم أبو الفرج ترجمات طويلة لمطيع ووالبة وغيرهما من أصحاب المحون الكثيرين ، وأنشد الحمريات التي نظمها أو كثيراً منها أو قل أشهرها ، وهى التى

تغنى فيها المغنون والمغنيات ، وفي أكثر الأحوال تختلط الخمرية بالغزل ، وكثيراً ما يكون غزلاً ماجناً . وما يدل أكبر الدلالة على شيوع شعر الخمريات على الألسنة أن أكبر من تغنى به في العصر ، وهو أبو نواس ، أصبح شخصية شعبية تدور على ألسنة الناس منذ عصره إلى اليوم . وهو يُعدُّ أستاذ فن الخمريات سواء من حيث كمية ما نظم أو من حيث كلفيته ، فقد عاش يتغنى بالخمير مجاهراً بالمجون والفسق ، وكأنما وُجد في العصر ليحمل ذنوبه وجميع آثامه . وكانت له ملكة عقلية خصبة استطاع أن ينوع بها تنوعاً واسعاً في معاني الخمريات ، حتى لكأنما يستمد من كنز سيال لا ينفد ما فيه ، وهو القائل مصوراً لعكوفه على الخمر والسماع صباح مساء :

إنما العيش سماعٌ ومُـدَامٌ ونِـدَامٌ  
فإذا فاتك هذا فعلى الدُّنيا سلام

وكانت دنياه الخمر وأكبَّ على كثوسها المعتقَّة ينهل منها ظامئاً لا يرتوى أبداً ، مقدماً لها من أشعاره وخمرياته تراتيل تصور عبادته لها ، فهي دينه ومعبوده الذي يتمنى لو اتسع سلطانه فشمّل الناس جميعاً ، حتى لا يبقى محزون إلا أحسن الفرح والابتهاج ولا شقياً تعس إلا أحسن الهناء والسعادة كما يقول :

دَعْ عنك لوى فإن اللّومَ إغراءٌ وداوئى بالتى كانت هى الداءُ  
صفراء لا تنزل الأحرانُ ساحتها لو مسها حجرٌ مسته سراءُ

حتى الجماد لو مسته دبت فيه الحياة ، واكتظَّ بمشاعر السرور والفرح ، فهي متعة الدنيا التي تملأ قلبه غبطة وراحة وابتهاجاً . وكان يمزجها بالغزل أحياناً وكأنما عاش قلبه موزعاً بين الخمر والحب ، نصفه لكل منهما ، بل لقد كان ينقسم قلبه أثلاثاً : ثلثاً للحب وثلثين للخمر ، بل نحن نبأغ فقد استغرقته الخمر ، فهي معبوده ، ومع ذلك كان يعرف كيف يجمع بينها وبين المرأة في صور بديعة . من مثل قوله :

الخمرُ يا قوتةٌ والكأسُ لؤلؤةٌ في كفٍّ جاريةٍ ممشوقةٍ القدُّ  
تسقيك من يدها خمراً ومن طرفها خمراً فما لك من سُكرين من بُدِّ

وقلما وُجد شخص من عصره إلى عصرنا إلا وهو يحفظ بعض أشعاره في الخمر أو في الغزل أو فيهما معاً ، وشعره بذلك يعد بحق شعراً شعبياً ، ولذلك لم يكن غريباً أن يضعه من ألفوا كتاب ألف ليلة وليلة بين الشخصيات الشعبية التي رسموها في كتابهم ، ومعروف أنه كتاب شعبي خالص .

ولم يكن شعر الزهد أقل انتشاراً على الألسنة من شعر الخمر والمجون ، بل من المؤكد أنه كان أكثر منه شيوعاً ، فإن الكثرة من الشعب كانت تعيش في ضيق وضنك ، وكان غير قليل منها يجي حياة كلها شظف وعناء لا يُطاق ، وكانوا جميعاً ينقبضون عن الدنيا وملذاتها ، وكانت تكتظ بهم حلقات الوعاظ في المساجد ، يستمعون إلى وعظهم وما يُبدتون ويعيدون فيه من أن الدنيا متاع زائل وأن الناس عما قليل راحلون ، والسعيد من يغتم العمل في العاجلة للترود به في الآخرة . وكثير من هؤلاء الوعاظ كانوا يأخذون أنفسهم بحياة زاهدة شديدة الزهد ، ونفر منهم كانت تُعرض عليه بعض الوظائف ، فبأبها خوفاً على دينه ، وتبعهم كثيرون من أفراد الشعب يعيشون مثلهم للنسك والتبتل والانصراف عن كل متاع دنيوي . ومن هنا أخذت تم موجة واسعة من الزهد ، وقصر غير شاعر حياته مثل عبد الله بن المبارك ، ومثل محمود الوراق وله أشعار كثيرة يدعو فيها إلى طاعة الله وتقواه والمبادرة إلى العمل الصالح مع الرضا بقضاء الله ومع التوكل عليه حق التوكل ومع الفتاة والإقلاع عن طلب المال ، فالغنى غنى النفس ، وفي ذلك يقول :

نَ كَانَ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَلَمْ يَقْنَعْ فَذَٰكَ الْمَوِيسِرُ الْمُعْسِرُ  
وَكُلُّ مَنْ كَانَ قَنوعاً وَإِنْ كَانَ مُقِيلاً فَهُوَ الْمُكْبِرُ  
الْفَقْرُ فِي النَّفْسِ وَفِيهَا الْغِنَى وَفِي غِنَى النَّفْسِ الْغِنَى الْأَكْبَرُ

ويصور جشع فقير النفس وأنه دائماً فقير مهما ادّخر من الدراهم والدنانير التي تفتنه عن دينه ، فالدرهم نخلته والدينار ملته ، استأثرا بكل ما فيه من هوى وعاطفة . وتباً للغنى الذي يسرق الإنسان ويستأسره ، ومرحبا بالفقر وعيشة الزهد الهنيئة . ويدعو دعوة حارة إلى الصبر على فواجع الزمان وكوارثه ، كما يدعو إلى العفو عند المقدرة والصفح الجميل عند الإساءة . وكان شعر محمود في الزهد يدور على جميع الألسنة ، ومثله شعر أبي العتاهية ، وكان قد قضى شطراً كبيراً من حياته

ماجنأ ممعناً فى المجون ، ثم انقلب زاهدأ ممعناً فى الزهد ، ولبس الصوف زى الزهاد ، وظل على ذلك نحو ثلاثين عاما يتحدث عن الموت والفناء ، ناعياً الحياة إلى أهلها ، فالأجل قصير والمنايا بالمرصاد ، وليس هناك إلا العدم ، وحرى بالإنسان أن يفقه حياته وحفائقها الواقعة ويعيش مكتئبأ محزونأ ، فالحياة إنما هى آلام تخنق الأنفاس ، وعمأ قليل سكرات الموت وآلامه ، يستوى فى ذلك المريض وطيبه ، بل قد يجيا المريض وموت الطبيب :

وقبلك داوى الطَّيِّبُ المريضُ فعاش المريضُ وماتَ الطبيبُ

ولا يزال يرددُ الحديث عن الموت والقبور والبعث والنشور ، متحولاً فى كثير من زهدياته إلى ما يشبه واعظأ . وكثيرأ ما يستضىء فى وعظه بآيات الذكر الحكيم والأحاديث النبوية ، وكثيرأ ما يضمّن مواعظه أدعية وابتهالات لربه . ومما يدل دلالة واضحة على شيوع أشعاره الزاهدة بين أفراد الشعب وأشعار أمثاله من الزهاد لعصره ما يُروى من أن الرشيد كان يتنزّه فى سفينة بدجلة ، فإذا الملاحون فى أثناء مسيرته بالسفينة يتغنون بقول أبى العتاهية فى الموت والفناء ، وأن كل إنسان إلى زوال وعدم ، مصير منتظر لجميع الناس لا مفر منه ولا ملجأ :

كيف إصلاحُ قلوبٍ إنما هن قُروحُ  
سيصير المرء يوماً جسداً ما فيه روحُ  
بين عيني كلِّ حى علمُ الموت يلوحُ  
نُح على نفسك يامسه كين إن كنت تنوح  
لتموتنَّ وإن عمَّـ رتَ ما عمَّـر نوحُ

وجعل الرشيد يستمع إليهم ويبكى وينتحب . وفى هذا الخبر ما يصور كيف كان شعر الزهد حينئذ يشيع فى الناس وأنه كان على حظ كبير من الشعبية ، وهى لا تلاحظ من ناحية مضمونه فحسب ، بل تلاحظ أيضاً فى لغته ، إذ كانت تقترب قريبأ شديدأ من لغة الحياة اليومية فى بغداد وغير بغداد ، حتى تمس قلوب الناس بدون حجاب من غرابة أو تعقيد . وكان أبو العتاهية يضع ذلك نصب عينيه قائلاً : « الصواب لقائل الشعر أن تكون ألفاظه مما لا يخفى على جمهور الناس مثل شعرى ولاسيا الأشعار التى

في الزهد حتى تفهمها العامة في يسردون أى صعوبة . ويلاحظ أنه لم يطلب السهولة والوضوح في شعر الزهد وحده بل طلبهما في كل شعر ، وكان ذلك كان مطلباً من مطالب العصر أن يتلاءم الشعر مع لغة جمهور الناس . وبدل بقوة على رواج شعر الزهد في العصر أنه قلما يخلو ديوان شاعر من أشعار فيه ، حتى أبو نواس الماجن نجد له أشعاراً زاهدة كثيرة ، وكان منها ما يدور دورانياً واسعاً على ألسنة الناس ، حتى غدا وكأنه من كبار الزهاد في العصر ، إذ كانت ملكاته من القوة والخصب بحيث كاد يتفوق على بعض الزهاد في تعبيره عن معاني الزهد ، حتى لتجرى له أبيات زهدية بين الناس مجرى الأمثال على شاكلة قوله :

أرى كلَّ حَيٍّ هالِكًا وابنَ هالِكٍ      وذا نسبٍ في الهالكين عريقٍ  
إذا امتحن الدنيا لبسبُ تكشفتُ      له عن عدوِّ في ثياب صديقٍ

وكانما كان يلتقط أنفاسه في أثناء مجرته . فيفكر في الدنيا وفي مصيره ، وتفد عليه أبيات من حين إلى حين ينغص فيها إلى الناس التعلق بالدنيا ومتاعها الفاني ، مصوراً ما ينتظرهم من الموت الذي سيقضى عليهم ليلاً أو نهاراً ، كما قضى على آبائهم . وكانما النسب الذي يجمع بين الآباء والأبناء ليس ما منحوه لهم من الوجود المشترك الذي تلقوه عنهم ، وإنما ما منحوه لهم من الموت والهلاك الذي ينسب فيهم جميعاً أظفاره .

ومن المؤكد أن الطبقات البائسة في العصر كانت أكثر طبقاته عدداً ، وكانت تكدح وتشقى وتتصبب عرقاً لينعم الخلفاء والوزراء وعلية القوم وكبار التجار والإقطاعيون بالحياة الرغدة والعيش الناعم ، غير مفكرين في جوع جائع ولا في عُرى عار ، بينما تتجرع الطبقة الفقيرة التمسة آلاماً ثقلاً وأهوالاً طويلاً ، وكانما عميت الأبصار وصمّت الأسماع ، فلا بصير ولا سميع ولا من يطعم جائعاً أو يكسّر عارياً أو يروى ظامئاً . وكان من أبناء هذه الطبقة من رُزق موهبة الشعر ، فحضى بصور حرمانها وعُريها وجوعها وظمأها ، شاعراً بما يصطلي به أفرادها من تعاسة وبؤس شديد . ومن أهم من عنوا بذلك أبو فرعون الساسي ، وكان البؤس — على ما يبدو — ينهك حياته ويكلفه هو وأسرته من الجوع والعري في ليالي الشتاء الباردة ما لا يستطيعون احتمالها ، ولا منقذ ولا معين ، وله بصور ذلك تصويراً دقيقاً :

وَصَبِيَّةٌ مِثْلُ صِغَارِ الدَّرِّ      جَاءَهُمُ البَرْدُ وَهَمُ بِشَرِّ  
 بَغِيرِ قُمْصٍ وَبَغِيرِ أُزْرِ      تَرَاهُمْ بَعْدَ صَلَاةِ العَصْرِ  
 وَبَعْضُهُمْ مَلْتَصِقٌ بِصَدْرِي      وَبَعْضُهُمْ مَلْتَصِقٌ بِظَهْرِي  
 وَبَعْضُهُمْ مُنْحَجِرٌ بِجِجْرِي      إِذَا بَكَوْا عَلَّانُهُمْ بِالفَجْرِ  
 حَتَّى إِذَا لَاحَ عَمُودُ الفَجْرِ      وَلَاحَتِ الشَّمْسُ خَرَجَتْ أُسْرِي  
 عَنْهُمْ وَحَلُّوْا بِأَصُولِ الجُدْرِ      كَانَهُمْ خَنَافِسٌ فِي جُجْرِي

والقطعة بديعة في تصوير بؤس أبي فرعون وبؤس عياله ، فهم عراة في زهورير  
 الشتاء وهم يلتصقون بصدر أبيهم وظهره وحجره يطلبون الدفء ، ويطلبون الطعام  
 ويعلمهم بالصباح ، حتى إذا لآح خرج على وجهه لا يلوى ، راجياً أن ييسر له  
 ما يستطيع أن يرد به عنهم شيئاً من الجوع والعرى ، وهم في الحجر متكئون بجانب  
 جدرانها ، وكأنهم خنافس متكومة في جحر . فيا للهول والالفقر وبالذؤس . ومن  
 الشعراء البؤساء التعساء أبو المخفف ، وكان في عصر المأمون ، واضطرته تعاسته  
 وبؤسه أن يتكفف الناس في بغداد ، ويسألهم صباحاً ومساءً رغيماً أو كيسةً  
 خبز ، وقلما كان يجد من يمد إليه يد شفقة أو رحمة . وله أشعار مختلفة في وصف  
 الرغيف ، يتغزل به فيها غزل العاشق المحروم الذي لا يعرف كيف يلقي محبوبه ،  
 وهو يبحث عنه - ويدور - في شوارع بغداد لا يكل ولا يمل متنقلاً من دار إلى دار  
 ومن حانوت إلى حانوت عساه يحظى بمن يمن له ويقدمه إليه ، وفي ذلك يقول :

دَعَّ عَنْكَ رَسْمَ الدِّيَارِ      وَدَعَّ صِفَاتِ القِفَارِ  
 وَعَدَّ عَنْ ذَكَرِ قَوْمِ      قَدْ أَكْثَرُوا فِي العُقَارِ  
 وَصَفَّ رَغِيْفًا سَرِيًّا      حَكْنَهُ شَمْسُ النِّهَارِ  
 أَوْ صَوْرَةَ البَدْرِ لَمَّا اسَّه      تَمَّ فِي الاسْتَدَارِ  
 فليس تحسُنُ إِلَّا فِي وصفه أشعارِي

والعقار : الخمر . وأكبر شاعر صور محنة البؤس في العصر أبو الشَّمَقْمَقِ ،  
 وكان يختمسى آلامه المرة في صبر بالغ ، حتى قالوا إنه كان لا يفارق منزله الأيام تلو

الأيام ، وكان لا يُرَى إلا في أطمار بالية ، ويُرَوَى أن بعض أصدقائه دخل عليه داره يوماً ، فرأى - رأى العين - بؤسه ، فأراد أن يُسَرِّى عنه ، فقال له : أبشِرْ أبا الشمقمق فإنه رُوي في الأحاديث النبوية أن العارين في الدنيا هم الكاسون يوم القيامة . وله أشعار كثيرة يصور فيها ضيق ذات يده وأنه لا يملك من دنياه إلا حصيرة وبعض ثياب بالية . وكان يأسى أسمى شديداً لأبنائه حين يقدّم العيد ، ولا يجدون ما يسدون به رفقهم من الخبز ، فضلا عن التمر والأرز وما تعود غيرهم من شرب اللبن الهنيء ، يقول :

ما جمع الناسُ لديناهُمُ      أنفعَ في البيتِ من الخُبْزِ  
وقد دنا الفِطْرُ وصَبِيانُنا      ليسوا بذى تَمَرٍ ولا أرزِ  
كانت لهم عَنزٌ فأوْدَى بها      وأجذبوا من لبن العَنزِ  
فلو رأوا خُبْزًا على شَاهقٍ      لَأَسْرَعُوا للخُبْزِ بالقَفْزِ

وينمى دائماً سوء حظه الذي يلازمه في حِلِّه وترحاله ، حتى ليستحيل الدر في يده زجاجاً ، والماء العذب ملحاً أجاجاً . ويكثر من وصف داره البائسة التي تخلو من الأثاث وتعج بالبراغيث ، ولا طعام هناك ولا خبز ، حتى لتفر الجرذان على وجهها تطلب النجاة إلى موضع يسمى زباله في الصحراء ، تجد فيه ما لا تجد في داره من فئات الطعام . ويبقى معه سنور أو هير مسكين ، فيأسى لحاله ، ويثوب السنور إلى رشده إذ لا يجد فارة يقتاتها ، فيفر بدوره مبتهجاً بفراره ، يقول :

لى بُيِّتٌ من النضارة قَفْرٌ      ليس فيه إلا النوى والنخاله  
فارقته الجرذان من قلة الخيِّ      ير - وطار الذباب - نحو زباله  
وأقام السنورُ فيه بشرٌ      يسأل الله ذا العلاء والجلاله  
أن يرى فارة فلم ير شيئاً      ناكساً رأسه لطول الملاله  
ثم ولَّى كأنه شيخٌ سوءٌ      أخرجوه من مَحْبِسٍ بكفاله

وبيته ليس فيه شيء سوى النوى والنخاله ، فما أبأسه من بيت وأتعسه !  
وأبو الشمقمق في أشعاره إنما يصور - كما قلنا - فقر الطبقة العامة في بغداد وما

كانت تحتمله من أنقال البؤس لثملأ الطبقة المترفة بطونها ، بينما تعيش هي في مسغبة وفقر مدقع . وكان أبو الشمقمق يمزج تصويره أحياناً - كما في هذه القطعة - بالفكاهة ، كأنما يريد أن ينفّس عن أبناء الشعب بعض ما هم فيه من عناء شاق . ويلقانا كثير من الدعابات والفكاهات في شعر الشعراء ، وكأنما كانوا يريدون أن يخفّفوا عن الشعب بنسيجها الحلو وما ينشر من بعض الغبطة والمسرة ، وكانت غالباً تُنظّم بلغة سهلة خفيفة من نفس اللغة التي يستخدمها الناس في الحياة اليومية العاملة على نحو ما نرى في دعابة بشار بلحاربه « ربابة » التي كانت تقوم على إعداد طعامه ، وهي تُمصى على هذا النحو :

رَبَابَةٌ رَبَّةُ الْبَيْتِ تَصُبُّ الْخَلُّ فِي الزَّيْتِ  
لَهَا عَشْرُ دَجَاجَاتٍ وَدِيكٌ حَسَنُ الصَّوْتِ

وبادره شخص بقوله : إنهما بيتان يهبطان عن مستواه الفنى في شعره ، فضحك بشار طويلاً ، وقال له يا صاحبي هذان البيتان عند ربابة أجمل من « قفا نيك » لامرئ القيس عندك . وهو يقصد معلقة امرئ القيس التي تستهل بالعبارة المذكورة . وبشار دعابة أخرى أضحكت الشعب في بغداد ضحكا متواصلا ، وفيها يذكر حلما رأى فيه حماراً له أدركه الموت ، يشكو من حبه لأتان شكوى مضحكة .

وما يدل بقوة على أن الشعراء في هذا العصر كانوا يريدون لأشعارهم أن تشيع في الشعب وأن تدور على ألسنته أننا نجدهم يكثرون في أشعارهم من صنع مقطوعات قصيرة ، حتى يمكن حفظها بسرعة وتداولها بين الناس . ويلاحظ ذلك في الهجاء بوضوح فإننا لم نعد نقرأ قصائده الطويلة التي كنا نقرؤها في العصر الأموي عند جرير والفرزدق ، بل أصبحنا نقرأ قطعاً قصيرة ، وكأنما تحول الهجاء إلى ما يشبه سهاماً نارية ما تزال تلمع وما يزال الشعراء يترامون بها ويتقاذفونها . وسرى ذلك من الهجاء إلى موضوعات الشعر الأخرى حتى المديح على نحو ما يلاحظ عند العتّابي شاعر الرشيد والبرامكة ، فقد كان لا يمدح إلا بمقطوعات قصيرة كأنه يراها أكثر التصاقاً بالسنة الشعب ، ولذلك آثرها على القصائد الطويلة . ونفذ الشعراء من خلال ذلك إلى فكرة أن تكون المقطوعة بيتين فقط ، مما جعلهم يستحدثون الرباعيات المشهورة التي شاعت فيما بعد في الشعر الفارسي ، وهي تتألف من أربعة شطور ،

يشارك أولها وثانيها ورابعها في قافية واحدة ، أما الشطر الثالث فقد يتخذ نفس القافية وقد لا يتخذها ، ومن أمثلتها البيتان السالفان لشار في وصف ربابة ودجاجها ، ومن أمثلتها أيضاً قول أبي العتاهية مزهداً في الحياة ومتاعها الفاني وأن الجميع يقبرون كما ولدتهم أمهاتهم ، لا فرق بين ملك ورعية ولا بين غنى وفقير ، يقول :

الموتُ بين الخلقِ مشتركٌ لا سوقةٌ يبتقى ولا ملكٌ  
ما ضرَّ أصحابَ القليلِ وما أغنى عن الأملِكِ ما ملكوا

وتكثر عند أبي نواس الخمسات ، وهي تتألف من أدوار ، وكل دور يتركب من خمسة شطور ، ويستقل الشطر الخامس في الدور الأول بقافية تنتظم جميع الشطور الخامسة في الأدوار التالية ، وكأن هذا الشطر الخامس عمود الخمس وقطبه الذي يدور عليه ، ونرى أبا نواس يحتم أحد فخمساته بهذا الدور :

يا ليلةً قضيتها حُلوةً مرتشفاً من ريقها قهوةً  
تُسكِرُ مَنْ قد يبتغي سكره ظننتها من طيبها لحظةً  
يا لبيت لا كان لها آخرُ

ويبدو أنه اختار الشطر الأخير من كلام العامة ، وكأنه كان مقدمة لأصحاب الموشحات في الأندلس واختتامهم أحياناً لموشحاتهم بصيغ عامية . ويذكر القدماء أن الأغنية الشعبية المعروفة باسم « المواليا » ظهرت في هذا العصر على لسان دنانير جارية البرامكة ، غير أن صاحب كتاب النجوم الزاهرة يذكر « مواليا » للعتابي تمضي على هذا الطراز :

يا ساقيا خُصِنِي بما تهوأت لا تمزج أقداحي رعاكَ اللهُ  
دَعَهَا صِرْفًا فَإِنِّي أَمْزَجُهَا إِذْ أَشْرَبُهَا بِذِكْرِ مَنْ أَهْوَأُ

وهذه المواليا دليل على أن أغنيتها لم تبدأ عامية ملحونة ، بل بدأت فصيحة ، وتحولت إلى العامية في العصور المتأخرة . ولعل في كل ما أسلفنا ما يدل بوضوح على مدى تمثيل الشعر في العصر العباسي الأول للطابع الشعبية المعاصرة له .